قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ

نسبهم

منسب النبي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ . قال الطبري: يونس بن متى، قيل: لم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى ابن مريم، ويونس ابن متى، وهي أمه. وقيل يونس بن سليمان، وجاء لقبه في القرآن (ذا النون) في سورة الأنبياء ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ [الأنبياء:٨٧][1].

موقعهم الجغرافي

قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى.

صفاتهم شدة الخوف من الله.

حياتهم

كان قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يعبدون الأصنام، فبعثه الله إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوحيد، فأقام فيهم ثلاثًا وثلاثين سنة يدعوهم، فلم يؤمن غير رجلين، وأيس من إيمانهم دعا عليهم، فقيل له: ما أسرع ما دعوت على عبادي. ارجع إليهم فادعهم أربعين يومًا. فدعاهم سبعة وثلاثين يومًا، فلم يجيبوه. فقال لهم: إن العذاب يأتيكم إلى ثلاثة أيام، وآية ذلك: أن ألوانكم تتغير. فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم، فقالوا: قد نزل بكم ما قال يونس، ولم نجرب عليه كذبًا، فانظروا فإن يبت فيكم فأمنوا من العذاب، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب يصبحكم. فلما كانت ليلة الأربعين أيقن يونس بنزول العذاب، فخرج من بين أظهرهم، فلما كان الغد تغشاهم العذاب فوق رؤوسهم، خرج عليهم غيم أسود هائل، يدخن دخانًا شديدًا، ثم نزل إلى المدينة، فاسودت منه سطوحهم،

(١). انظر: تاريخ الطبري (٣٧٥/١)، الكامل في التاريخ (٢٧٨/١).

فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس فلم يجدوه، فألهمهم الله التوبة، فأخلصوا النية في ذلك، وقصدوا شيخًا، وقالوا له: قد نزل بنا ما ترى، فما نفعل؟ قال: آمنوا بالله وتوبوا، وقولوا: يا حي يا قيوم، ويا محيي الموتى، يا حي لا إله إلا أنت. فخرجوا من القرية إلى مكان رفيع، فيه براز من الأرض، وفرقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجوا إلى الله واستقالوه، وردوا المظالم جميعًا. حتى إن كان أحدهم ليقلع الحجر من بنائه، فيرده إلى صاحبه، فكشف الله عنهم العذاب.

فلما بعث الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أهل نينوى، من أرض الموصل، ودعاهم إلى الله ﷻ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث. فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عزوجل، وصرخوا وتضرعوا، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات، والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم، بحوله وقوته، ورأفته ورحمته، عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس:٩٨]، أي هلَّا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها. فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال

تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ:٣٤]، وقوله: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [يونس:٩٨]، أي آمنوا بكمالهم. وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروي، كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟ على قولين، الأظهر من السياق: نعم إن شاء الله. والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [الصافات:١٤٧-١٤٨]، وهذا المتاع إلى حين، لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي. والله أعلم.

والمقصود: أنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينة في البحر، فلجت بهم واضطربت، وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون، على ما ذكره المفسرون، قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة، ليتخففوا منه، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ [الصافات:١٣٩- ١٤٢]، وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة، ألقي في البحر، وبعث الله، ﷻ، حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى: أن لا تأكل له لحمًا، ولا تهشم له عظمًا، فليس لك

برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت، حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حي، فخر لله ساجدًا، وقال: يا رب، اتخذت لك مسجدًا لم يعبدك أحد في مثله.

والمقصود: أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجي، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السماوات السبع، والأرضين السبع، وما بينها، وما تحت الثرى، فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال، الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال في كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، وإله المرسلين: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧- ٨٨]. والظلمات هي: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]، قيل: معناه لولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه، والرجوع إليه، للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذلك الحوت. وقيل: معناه: فلولا أنه كان

من قبل أخذ الحوت له من المسبحين، أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرًا. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال لي: «يا غلام، إني معلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[1]. وعن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت، أن خذ ولا تخدش لحمًا، ولا تكسر عظمًا. فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًّا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. قال ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت، فقذفه في الساحل، كما قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥]»[2]، وقال رسول الله ﷺ:

(١). أخرجه الفريابي في القدر (رقم١٥٦)، والآجري في الشريعة (٨٣٢/٢ رقم٤١٤)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٩٠/٤ رقم١٥٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٠/٢ رقم١٠٤٣)، والحاكم (٦٢٣/٣ رقم٦٣٠٣)، وقال: هذا حديث كبير عال. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٢٩٦١).

(٢). أخرجه الطبري في تفسيره (٥١٨/١٨).

«إن يونس النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، قال: اللهم ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فأقبلت الدعوة تحن بالعرش، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء»[1]، فطرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة، وهيأ الله له أروية وحشية، تأكل من خشاش الأرض، فترويه من لبنها، كل عشية وبكرة، حتى نبت. وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتًا من شعره:

فأنبت يقطينًا عليه برحمة من الله لولا الله ألفي ضاحيا[2]

---

(١). أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٤٦٤ رقم١٣٧١٠)، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (رقم٣٢)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٣-٢٤): وهذا غريب أيضًا من هذا الوجه، ويزيد الرقاشي ضعيف، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم، كما يتقوى ذاك بهذا، والله أعلم.

(٢). البيت ذكره ابن جرير في تفسيره (٢١/١١٣)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٤/٤٨٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/٥٥٣)، وأبو حيان في البحر المحيط (٩/١٢٥)، وابن كثير في تفسيره (٧/٤٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٧/١٣٠)، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (ص٤٧)، والتنوخي في الفرج بعد الشدة (١/٩٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ أي ألقيناه بالعراء، وهو المكان القفر، الذي ليس فيه شيء من الأشجار، بل هو عار منها ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥]، أي ضعيف البدن. ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات:١٤٦] واليقطين: هو القرع.

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حكم جمة: منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيئًا ومطبوخًا، وبقشره وببزره أيضًا، وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ، وغير ذلك. وقد سخر الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها، وترعى في البرية، وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به، ونعمته عليه، وإحسانه إليه، ولهذا قال تعالى ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أي الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿﴾ [الأنبياء:٨٨]، أي وهذا صنيعنا بكل مؤمن دعانا واستجار بنا. وقد قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى»، قال: فقلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]»[(١)]، فهو شرط من الله لمن دعاه به[(٢)].

(١). أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥١٩/١٨).

(٢). انظر: البداية والنهاية: (١٦/٢-٢٧)، والكامل في التاريخ (٢٨١/١)، تاريخ الطبري (٣٧٥/١).

العبر و العظات المستفادة

قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه فيها من العبر والدروس لأي داعية وكيفية تحليه بصفات معينة، ليصل لأحسن النتائج في الدعوة:

١. التأني وعدم الاستعجال في أخذ القرارات.

٢. الحلم وعدم الغضب.

٣. الداعية إلىٰ الله يجب أن يكون صبورًا، طويل النفس؛ ليصل إلىٰ غايته العظيمة.

٤. الدعاء والتسبيح الوارد في قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، دعاء جامع، شامل للتوحيد، والتسبيح، والاعتراف بفضل الله تعالىٰ علىٰ العبد.

٥. بيان كيفية أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لاينسىٰ عباده الصالحين في الضراء.